

النهار

الأحد 06 كانون الثاني 2008 - السنة 74 - العدد 23230

شهادة أستاذ زائر في جامعة حلب (1)

بناء ضخم بلا روح لألوف الطلاب الغائبين يمثلهم منات يدونون المحاضرات

حلقة أولى من شهادة مدرس جامعي أمضى سنتين دراسيتين أستاذاً زائراً في جامعة حلب السورية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية. وهي تتضمن وصفاً للبناء الجامعي وبرامج التدريس وصلة الطلاب بها.

-1-

قادمًا من الولايات المتحدة الأميركية التي أدرّس في إحدى جامعاتها، وصلت الى حلب في العام 2003، لأعمل استاذاً زائراً في جامعتها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، حيث اكتشفت أن برامج التدريس وموادها تقررها مسبقاً ومرة واحدة "الى الابد"، وزارة التعليم العالي في دمشق، ويستحيل على المدرسين اختيار المواد وموضوعاتها الثابتة، المكررة والمستعادة، سنة بعد سنة، من دون أن يسعى أي من الاساتذة، أصلاً، في تغييرها، بل يقيمون على استعادتها لتبقى على حالها منذ قرّرت وأعدّت في المرة الاولى. وازضافة الى الاساتذة الثابتين والمتفرغين في الكلية، هناك فئة أخرى من القادمين من دمشق للتزاحم على ساعات تدريس اضافية يحصلون منها بدلات انتقال الى جانب أجورهم الثابتة الزهيدة. ووسط هذين الثبات والتزاحم، لم يبق لي من مواد التدريس سوى الفضلات.

-2-

على مساحة واسعة في منطقة سكنية راقية على مدخل المدينة، تنتصب المباني الجديدة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة حلب، مؤلفة من حدائق وبناء للتدريس والادارة ومكاتب الاساتذة، وآخر للمكتبة، وثالث للسكن الطالب. وسرعان ما علمت أن إنجاز مشروع بناء الكلية وتجهيزه والانتقال اليه من بناء آخر قديم، استغرق أكثر من 20 سنة، لتفتح الكلية أبوابها لاستقبال الطلاب في العام الدراسي 2002 - 2003. من الخارج تبدو المباني جديدة ضخمة وحديثة الطراز المعماري والهندسي. لكن الدخول اليها والتجول فيها، يبعثان شعوراً بالفراغ والوحشة اللذين يصدران عن الضخامة والحدائثة، ويملآن الباحة الداخلية الخالية والمقفرة في ضخامتها مجوّفة البناء من الطبقة الارضية حتى الطبقة الاخيرة، وحولها قاعات التدريس ومكاتب الادارة والاساتذة. إنه بناء بلا روح ويبعث البرودة في العلاقات الإنسانية بين الطلاب والاساتذة الذين لا يترك حضورهم ومكوّنهم أثراً يبدد جمود المكان وخواءه، فيظل المنتشرون فيه غرباء عنه وعابرين. والحق أن طبيعة الحياة الجامعية للطلاب والاساتذة ونسيج علاقاتهم في ما بينهم وبعملية التدريس وأنشطتها، أضعف وأهزل من أن تبعث الروح والإلفة في البناء الذي شُيّد لاستيعاب ألفي طالب وطالبة، فلا يداوم منهم على الحضور في الكلية والدخول الى قاعات التدريس سوى مئات قليلة على مدار السنة الدراسية الجامعية.

-3-

لا يبدو أن دراسة للحاجات الوظيفية الفعلية قد سبقت إنشاء البناء الجامعي للكلية الذي صُمم على الطراز السوفيياتي الراحل في ضخامته الافقية النمطية. فقاعات التدريس أنشئت وجُهزت كلها متساوية في ضخامتها واتساعها، لتستوعب الواحدة منها 500 طالب وطالبة. لكن المعروف والشائع أن طلاب الكليات غير التطبيقية في الجامعات السورية كلها، لا يداوم منهم على الحضور الى قاعات التدريس سوى نسبة ضئيلة لا تتجاوز الستة في المئة. لذا تبقى كل من هذه القاعات الضخمة الواسعة شبه خالية سوى من نحو 30 طالباً وطالبة يتوزعون متباعدين في أرجائها الخاوية في أوقات الدوام الجامعي طوال العام الدراسي. وهذا يذكر بمباني المدارس الرسمية التي أنشأها مجلس الجنوب اللبناني في كثير من البلدات والقرى اللبنانية

الجنوبية والبقاعية في سنوات ما بعد الحرب، لتبقى صروحاً عمرانية خاوية وخالية الا من أعداد ضئيلة من التلامذة، ولتشهد على قوة زعامة الاستاذ نبيه بري وعظمتها، وحضور "حركة أمل" في هذه البلدات والقرى، تماماً كما تشهد ضخامة القاعات الخالية والخواوية في كلية حلب على قوة سلطان النظام البعثي في سوريا.

ثم إن ضخامة قاعات التدريس واتساعها في الكلية الحلبية، جعلها قليلاً قياساً الى كثرة مواد التدريس الجامعي وتنوع حصصها اليومية. وهذا ما أدى الى أن تفيض المواد والحصص أثناء الدوام اليومي عن عدد القاعات اللازمة التي يشغلها طلبة قليلون، فيما لا يجد طلاب آخرون في مادة أخرى قاعة فارغة يأوون إليها، فتشوب الفوضى اليومية عملية التدريس في البناء الجامعي الضخم الذي يضيق بطلبة قليلين، رغم اتساعه وخواؤه.

ولتكتمل صورة هذا البناء الجامعي الذي يمتلئ داخله بالفراغ والفوضى، لا بد من إلقاء نظرة على الكافيتريا المزدهمة دائماً بالطلبة وصخبهم، على خلاف قاعات التدريس الفسيحة وشبه الخالية منهم، طوال ساعات الدوام اليومي. سحب دخان التبغ وصخب الموسيقى والالغاني المنبعثة من ستريو، تبعث على الاختناق في الكافيتريا المزينة جدرانها بعدد وافر من صور السيد حسن نصرالله.

أما الصورة الانتشائية للبناء الجامعي الذي استغرق انجازه 20 سنة، فلا تكتمل بدورها، الا إذا علمنا أن هناك دعوى قضائية جنائية في حق متعهد تشييده المتهم بالسرقة والاختلاس والغش في الانشاء والتجهيز. فالطلبة كثيراً ما يرددون أن هزة أرضية لا تتجاوز قوتها 3 درجات لا بد أن تعرض البناء للتصدع والانهيار. وفي السنة الدراسية الاولى ظهرت بعض التشققات الطفيفة في البناء، كما ظهر الاهتراء السريع في التجهيزات الصحية، ناهيك بالنش في السقوف وتسرب الماء من أجهزة التدفئة (الشوفاج) الذي سرعان ما توقف عن العمل.

-4-

كثيراً ما تسمع مدرّسي الجامعة وطلبتها في حلب يقولون إن كلية الآداب والعلوم الانسانية كناية عن مكب للنفايات. ذلك أن كل طالب حاز شهادة الثانوية العامة في سوريا لا يخوله مجموع علاماته الدخول الى كليات الحقوق والطب والهندسة، ينتسب الى كلية العلوم الانسانية لدراسة الفلسفة العامة، أو علم النفس، أو علم الاجتماع، أو الأدب العربي، أو الانكليزي، أو الفرنسي.

الطلبة المنتسبون الى هذه الكلية يصعب إحصاء أعدادهم وتحديدها إلا على نحو تقريبي، فيتحدثون تارة عن 60 ألف طالب وطالبة، وطوراً عن مئة ألف. فالطالب لا يدفع رسوم تسجيل، ولا يهتم بغير ورود اسمه في قائمة التسجيل بداية العام الدراسي، غير عابئ بالحصول على بطاقته الجامعية، الا اذا كان يحتاج إليها في تسهيل بعض أموره الحياتية والمعيشية، او للوجاهة والتباهي. أما الأهم من هذا كله فهو تدوين اسمه على لوائح التقدم الى الامتحانات في نهاية كل فصل دراسي (السنة الدراسية تنقسم فصلين اثنين). ومن أصل آلاف الطلاب الذين يتسجلون في هذه الكلية، لا يحضر الى قاعات التدريس طوال الفصل سوى المئات. في هذا السياق لا بد أن نذكر أن عدد الطلبة الجامعيين في سوريا كلها يراوح بين 450 و350 ألف طالب وطالبة في العام الدراسي الواحد. وهؤلاء يتوزعون على 4 جامعات: دمشق، حلب، حمص (اسمها جامعة البعث)، واللاذقية (اسمها جامعة تشرين).

لتقديم صورة تقريبية عن حقيقة هذه الأعداد ومعناها وتوزعها، اروي أن العارفين بأحوال الجامعات في سوريا كانوا قد حذروني من ضخامة اعداد الطلبة فيها، قبل وصولي من اميركا استاذاً زائراً في حلب. وحين دخلت الى قاعات التدريس في الكلية مطلع السنة الدراسية (2003 - 2004)، وجدت ان عدد الطلبة في القاعات يتراوح بين 30 و50 طالبا وطالبة، قلت لبعض من الطلاب في قاعة ان عددهم لا يستهان به، قياساً الى عدد الطلبة الذين يراوح بين 10 و20 في قاعات الجامعات الاميركية. لكن احد الطلاب سرعان ما ضحك قبل ان يقف ويقول لي: نحن الحاضرين هنا والان يا حضرة الاستاذ، لسنا سوى نماذج (عينة) تمثيلية لطلبة هذه القاعة الذين سيصير عددهم 800 طالب وطالبة في وقت الامتحانات بعد 3 أشهر.

بعد ايام انتبهت الى ان بعضاً من هؤلاء الطلبة- النماذج الحاضرين والممثلين للغائبين، هم وحدهم الذين ينشغلون بتدوين المحاضرات التي القيتها في القاعة. قبل نحو اسبوع من نهاية الفصل الاول من السنة الدراسية، قدّم لي طالب من مدرّسي المحاضرات ما دوّنّه، وطلب مني ان اضع توقيعاً على كل ورقة منها. وحين استوضحته الغاية من ذلك، قال الطالب انه مكلف تدوين محاضراتي لبيعها من مكتب يقوم باستنساخها وبيعها بدوره من الطلبة الغائبين الذين لا يحضرون قط الى الكلية الا في ايام الامتحانات. اخذت المذوّتات معي الى المنزل، فأصابني ذهول حين قرأتها واكتشفت انها جمل مفككة غير مفهومة. في النهار التالي

اوضحت للطلبة ان الاجابة عن اسئلة الامتحان تتطلب مناقشة نص من النصوص التي تناولتها المحاضرات بالشرح والتعليق، ولا يفيد حفظ المحاضرات المدونة، لأنها غير قابلة للقراءة والفهم. اذك وقف بعض الطلاب قائلين: استاذ نحن لسنا في اميركا، نحن اغبياء، ولا نستطيع القيام بما تطلبه منا. حتى ان طالبا منهم قال: نحن حمير استاذ، ومنذ صغرنا تعودنا على الحفظ الحرفي للدروس قبل الامتحانات، وليس في مقدورنا أن نشرح ونعلق ونناقش.

-5-

بعد ايام جاءني الطالب مدون محاضراتي الى مكتبي شاكيا، وطلب مني ان اختصر مدوناته من 250 صفحة الى 25 صفحة، لأن مكتب الاستنساخ رفض استنساخ المدونات، قائلا له ان الاستاذ المحاضر (اي انا) مصاب بمس في عقله وباسهال كلامي، والا كيف تملأ محاضراته 250 صفحة من الكلام الذي لا يشتري مدوناته اي من طلاب الكلية؟!!

رفضت اختصار المدونات، فذهب الطلاب الى رئيس القسم، ثم الى العميد، محتجين شاكين من طول المحاضرات، فما كان من العميد والرئيس الا ان قالوا لي: ليش مصعبها استاذ، شو في بالدي؟! ما بدّا ه القد، طريها استاذ، صلّ ع النبي.

بعد ذلك صرت التقى اشخاصا لا اعرفهم، ولا اعلم انهم من الطلاب الذين لم ارهم مرة في قاعات التدريس، الا حين يسألونني عن المحاضرات ومادة التدريس واسئلة الامتحانات. وهؤلاء رحى التقى بهم في مكاتب البريد او الهاتف او شركة الكهرباء، فأدركت ان كثيرين من الطلاب موظفون في المكاتب الحكومية. كم كانت اسئلتهم وتوسلاتهم تحرجني، حين يطلبون ان اغير اسلوبي في التعليم. ومرة تقدم شخص يعمل في مطعم، قائلا: صحيح استاذ بذك تسألنا اسئلة من خارج المحاضرات؟! اما سائق سيارة الاجرة التي صعدت الى جانبه مرة، فقال لي: ولو استاذ ليش بذك تعمل فينا هيك، مفكرنا فلاسفة؟!!

في نهار الامتحانات، بعد توزيع الاسئلة على الطلاب، وقف جمع منهم محتجين على ما ورد في الاسؤال حول نص صغير طلبت شرحه ومناقشته، فقالوا: شو يعني اشرح ونناقش؟ نحن لا نعرف ان نشرح ولا ان نناقش. اما رئيس القسم الذي اشتكى الطلاب لديه، فسألني: شو يعني علق؟!!

حين ظهرت نتائج الامتحان ورسب في المادة التي ادرسها ثلثنا الطلاب، اضطرت الى مغادرة حلب الى بيروت، بعدما راح بعض الطلبة الحزبيين يتحدثون عن اتجاهاتي الاميركية في التدريس ووضع الاسئلة. واذكر أن احدهم قال لي: ولو استاذ، انت استاذ زائر، وبتسقطنا في الامتحان؟!!

محمد أبي سمرا